أبو عادل

أبو عادل

سيحصل معي حادث وربما أموت!

هذا الإحساس الوحيد المسيطر عليَّ منذ أفقت، وهو شبيه بتنبؤات غامضة عن موت قريب لطالما أشعر بها في أيامي، ولطالما تحققت أو تحقق جزء منها، فأنا موظف، مضطر للخروج من بيتي كل يوم، واستخدام المواصلات العامة. أعد نفسي حيا بالمصادفة لأني لم أمت في واحدة منها، أو لأني محظوظ وحسب، أو لأن أمي تدعو لي باستمرار.

وقفت عند موقف الروضة أنتظر واحدا من الميكروات الذاهبة إلى البرامكة، أعرف الميكروات كلها أيضا مع السائقين، تركت الأول لأن السائق مدعوم لا يدفع رشاوى للشرطة، ويسوق الميكرو بجنون ولا يكاد يلتزم بأي نظام. وتركت الثاني لأنه يمشي مثل سلحفاة وكل زبائنه من النسوان السمان ممن يحتجن لثلاثة حتى يعينهن على الصعود ومثلهم على النُّزول.

فكرت بالعودة إلى البيت ثم تراجعت لأن موعدي مع السفارة اليوم، اليوم سيتقرر موضوع هجرتي النهائية من سوريا، لا بد من الذهاب.

انعطف صوبي ميكرو بشكل حاد ومفاجئ، حسبت أن الحادث الذي تنبأت به قد وقع، وصارت ركبي ترتجف من الفزع. أوقف أبو عادل الميكرو أمامي تماما وصار يصرخ في وجهي بصوت عالٍ:"برامكة.. برامكة.. برامكة". حاولت أن أحيد فرجع حتى صار بمحاذاتي مرة أخرى وأكمل ما بدأه من صراخ، فلم أجد نفسي إلا منساقا ومجبرا على الصعود من دون تفكير، وكأني نسيت خوفي من الموت وأفضل الانتحار. إنه خيار من يصعد في رندا، ورندا اسم ميكرو أبو عادل.

روحي رندا!

خاطب الميكرو وانطلق بسرعة كبيرة كمن ينطلق في حلبة سباق سيارات، تمسَّكت بالعارضة أمامي واستعذت بالله. قال أحد الركاب:

- على مهلك يا أخي!

التفت بالميكرو بانعطاف مجنون وأوقفه على جانب الرصيف، ثم تناول عصا غليظة من جانبه، رفعها وجعلها متأهبة للضرب، وهو ينظر إلينا بغيظ، سأل بهدوء عن المتكلم، فساد صمت، صرخ بصوت عال سائلا عن المتكلم، ولما لم يجد جوابا، ألقى خطبة مرتجلة بصوت عال مستخدما العصا على طريقة الحجاج، تكلم فيها عن قدرته الفائقة في القيادة وعن أنه أمهر شوفور في كل سوريا، وأن رالي سوريا سوف يفشل فشلا ذريعا لأنه ليس مشاركا فيه، وراح يتحدث بشفافية عن الأمان وعن حياة الراكب المؤمن عليها طالما هو برفقته، وأن هنالك عقدا مبرما خفيا بينه وبين أي زبون محتمل، فبمجرد أن يصعد إلى الميكرو، يكون عليه أن يوصله إلى وجهته سالما غانما:

- متل ما استلمتك بسلمك

تناول العصا من يده اليمنى وسلمها لليسار، ثم سلمها وأعادها إلى الأولى كمثال توضيحي على القضية المطروحة، ثم أخرج من جيبه شهادة السواقة وأبرزها بشكل واضح.

- هي، شايفين هي، هي عطتني اياها الدولة، يعني السلطة، والسلطة بتفهم والا ما بتفهم؟ لا يكون حدا في عندو اعتراض عَ السلطة؟

استعرض جميع الوجوه بنظرة حادة وشاملة باحثا عن جواب ما، ثم التفت وجلس بخشونة خلف الدركسيون وانطلق بأسرع من الأولى، ساد صمت ازرَّقت معه وجوهنا.

وضع شريط كاسيت لمغنٍّ يغني مواويل بشعة بصوت بغاية البشاعة، تأثر له أبو عادل، فتحمس وزاد من السرعة، وصار يصرخ بنشوة وإعجاب شديد، ويترك المقود ويصفق، ثم جرى إطلاق نار في الحفلة داخل الشريط رفع مسدسا معلقا على جنبه، لقمه، ثم أخرجه من الشباك وأطلق، نزلت رأسي أنا وباقي الركاب تحت المسند، وتابع الإطلاق حتى فرغت الرصاصات. رفعت رأسي وكأني ناج من موت محتوم.

- هي خمس ليرات!

صرخ وانعطف انعطافة حادة صوب الموقف، حسبت أنه رأى خمس ليرات على أرض الشارع وسينْزل حتى يلمها، فظهر أن الخمس ليرات زبون عادي، وعليه أن يفوز به قبل أن يركب مع أحد منافسيه من سائقي الميكروات. كل إنسان عنده يساوي خمس ليرات، الناس خمسات تمشي على أرجل وتستطيع الجلوس على المقاعد ولا تفتح فمها إلا عندما تتثاءب، وهي مستعدة دومًا لسماع خطابات نارية، ولديها قدرة على التحمل تفوق قدرة أي كائن آخر، ولا تعترض على أي شيء.

امتلأ الميكرو أخيرا وسوف يخرج من جرمانا، أرجو ألا يكون في المخيم عند التقاطع شرطي، فوجوده مقترن دوما بوجود ازدحام لا يطاق، فاهتمامه لا ينصب على تنظيم السير، بل على تعقيده تعقيدا قدر المستطاع وبالتالي تحصيل أكبر قدر ممكن من الرشاوى.

ظهر الازدحام الشديد، إذن هنالك شرطي من دون شك.

وقف أبو عادل بالميكرو في صف السيارات، وما لبث أن شعر بالملل فرجع إلى الخلف ثم انعطف وتقدم مجتازا صف السيارات مخالفا نظام السير، تقدم في وجه السيارات القادمة، متخلصا منها بالانعطاف إلى أقصى اليسار ثم بالعودة إلى قلب الطريق متحاشيا سيارة ضخمة تنقل على ظهرها دبابة، فاضطر للنزول في حفرة عميقة فارتفعت من مكاني وضرب رأسي بالسقف، صار عندي انتفاخ واضح أعلى جبيني جهة اليمين. وقد عبر الطريق حتى الإشارة ضمن خط سير متعرج مثل خط سير الأفعى، كنت مضطرا أنا وباقي الركاب للتشبث بالعوارض المثبتة.

وصل إلى القرب من الإشارة وصف الميكرو على أقصى اليسار، ظهر أن سبب الازدحام شجار أقحم الشرطي نفسه فيه، نزل أبو عادل تاركا الميكرو عرضة للاصطدام في أي لحظة، تقدم صوب الشجار واقترب خلسة من الشرطي المشغول بتفريق المتشاجرين وإبعادهما عن بعضهما بعضا، رفع أبو عادل يده وصفع الشرطي صفعة قوية، فارتج رأس الشرطي مثل نواس، ووقعت طاقيته المعدنية على الأرض، داخ فعلا وكاد أن يقع، فراح الأولاد المتجمعون يلعبون بالطاقية التي تشبه الفوتبول، ويركلونها بأقدامهم، بينما انسل أبو عادل وعاد إلى الميكرو من دون أن ينتبه إليه أحد، صعد إلى الميكرو وهو يقهقه، وراح يغني ويصفق ويتحدث عن انتصاره، فبدل أن يدفع للشرطي خمسا وعشرين ليرة كما هي الحال كل صباح دفع له ما يستحقه فعلا.

رجع صوب جرمانا ثم التفت إلى حارة فرعية مثل الدوامة، قد يُضيِّع في القرد ابنه، لكثرة ما فيها من حارات ضيقة ومداخل ومخارج وحفر ومطبات، وكل ذلك لم يجعل أبو عادل يخفف السرعة مثلا أو يداري ضيق الطريق وكثرة تعرجاته، بل راح يقود بسرعة فجأة يدخل إلى اليمين ثم إلى اليسار ينْزل في حفرة ويصعد على مطب، شعرت وكأني في غسالة ملابس تدور بسرعة دورات خرافية. فجأة، صعد على مطب

عال جعلني أرتفع مرة أخرى إلى السقف فصار عندي انتفاخ ثان أعلى جبيني جهة اليسار.

ذكرني ذلك برفيقي عندما أقحمني في مدينة الملاهي بلعبة السيارة المغلقة التي ترتفع وتنخفض وتميل على الجانبين، وهي مزودة بشاشة يظن الراكب أنه يقود سيارة فعلا وهي تمشي على أرض وعرة فيها الكثير من الموانع من أشجار وصخور وغيرها، لكن.. عندما يخرج اللاعب منها يشعر بأنه تلقَّى أكثر من خمسين عصا على رأسه.

خرج الميكرو من الحارة الدوامة وأنا أشعر بشعور من أكل مائة عصا على رأسه، فبالإضافة إلى النتفاخين الواضحين على الجبهة امتلأ جسمي بكدمات كثيرة، وأن المعدة والرئتين والقلب وكل أجهزة جسمي الداخلية قد غادرت أماكنها، تنهدت لأنه صار على أرض مستوية أخيرًا، فما لبث أن صعد فوق حجر ارتفاعه نصف متر وخبط على الأرض، فضرب رأسي بالسقف مرة أخرى وصار عندي انتفاخ ثالث أعلى جبيني من المنتصف.

أخذ أبو عادل المتحلق الجنوبي.

لم ينته فيلم الرعب بعد!

قاد الميكرو بسرعة عالية، كان يلاحق سيارة فيها صناديق فاكهة، توقف بحدة وانعطف صوبها وراح يلاحقها ويناور عليها حتى وصل إلى محاذاتها وفاز بحبة دراقن، فصرخ من الفرح، مسحها بكم قميصه وراح ينهشها.

غير أن فرحته لم تدم عندما تجاوزته سيارة تاترا وباص للنقل الداخلي، يبدو أنهما يتسابقان، رمى أبو عادل باقي حبة الدراقن وكشر وزمجر وحمل العصا في يده وصرخ بغضب:

- ولك أبو تاترا! وين بدك تهرب مني! والله غير إعملك فارة! روحي رندا!

وأقلع بأقصى سرعة وأطلق زمور الترين وهو يلوِّح بالعصا، ويصرخ بالشوفورين خصومه وكأنه جالس معهم، صار الميكرو يقترب من يسار التاترا، ثم غير رأيه، خفف السرعة وانعطف إلى جهة اليمين، صار خلف التاترا وباص النقل الداخلي بخمسين مترا تقريبا، ورفع ساعد مغير السرعة إلى الأقصى وضرب على الدركسيون بيديه وقال:

- روحي رندااا!

وانطلق بأقصى سرعة ممكنة، مطلقا زمور الترين بشكل متواصل، وصل إلى مؤخرة التاترا وباص النقل الداخلي، فزاد من السرعة ودخل بينهما وبدأ رالي سوريا الحقيقي، كانت موتورات التاترا والباص تطلق أصوات خوار وجعير عالية مرعبة، وأبو عادل يدير رأسه مثل أبو علي الحردون بينهما وكلما زاد من سرعته زادوا ثم لما يئسوا من تجاوزه صاروا يقتربون من الميكرو شيئا فشيئا.

ونحن، وجوهنا مزرقة حتى الموت، لا ندري ما هو مصيرنا الذي يفصلنا عنه أقل من ثانية، واقعين بين قيادة مجنونة وشاحنة ضخمة وباص كوحشين يريدان أن يسحقانا.